بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الاولى

قدومى الى العراق

أتيتُ مدينة السلام فى السنة السادسةِ والخمسين بعد المائة من هجرة النبىّ صلى الله عليه وسلم لأتخرَّج فى الفقه على لسان الشريعة يعقوبَ بن ابراهيم بن خنَيْس الأنصارى ،[1] وكان خليلا لأبى (رحمه الله) على صفاء بينهما لم يكن بين اثنين ، فركبت البحرَ من هُرْمُز فى ريح رُخاء زجّتْ مركَبنا إلى البحرين فأطرافِ العراق أهنأَ تزجية ، فلما حاذينا الساحل مما يلى البَصْرة طلعت علينا ريح عاصفة ، وانحدر بنا الموج إلى منعرِج فى البر من البحر كلُّه رمال ومهاوى ماء ، فبتنا ليلَنا فيه على أشدِّ ما يكون من الخوف إلى أن طلع الفجر ، فأقبلت علينا من صدر البحر سفينةٌ حملتنا إلى عَبَّادان ، وأرسَتْ بنا على مُطَلٍّ من خشبات تنتهى المراكب إليها ولا تتجاوزها خوفاً من الجزر[2] لئلا تلحَق بالأرض وتغوص فى الطين الذى يأتى دِجلة به[3] فى انسيابه ، وهذا البحر فى مسامتة العراق شديدٌ على السَّفْر ، ولا يُحْمَد منه إلاّ عُمران سواحله بالناس لما فيها من مغاصات[4] الدر والياقوت والعقيق والباديج وغير ذلك ، وهى باب واسع لطلاّب

---

(١) هو أبو يوسف القاضى (٢) المسعودى ١ : ٥٠
(٣) تقويم البلدان ٣٠٩ (٤) ابن خرداذبه ٦١ والمسعودى ١ : ٥٢

الرزق ، وللغواصين عليها أخبارٌ غريبة فيما سمِعتُ ، حتى قيل إنهم يشقُّون آذانهم للتنفس ويجعلون فى آنافهم القطن ويصطنعون وجوهاً من الدبل كالمشاقيص ، ويدهِنون أبدانهم بالسواد خوفاً من أن تبتلعهم دوابُّ البحر ، ويصيحون عند الغوص مثلَ الكلاب لتنفيرها عنهم ، فاذا بلغوا القعر عصروا دُهْناً يضىء منه البحرُ ليَروْا الأصداف التى يتولد فيها اللؤلؤ ، وتكون مدفونة فى أرض البحر رملا كانت أو طيناً . ومما يزعمون[1] فى هذا اللؤلؤ أنّ تولّدَه من مطر نيسان إذ تكون الصدفة مفتوحة على وجه الماء فتقع عليها القَطَرات فتربى فيها درراً رائقة الصفاء .

ولما أخذت نصيباً من الاستراحة انتقلت على سفين إلى البَصْرة ونزلت بها فى موضع[2] يعرف بسكة بنى سمرة بازاء دار الهَيْثَم بن معاوية أميرها . وقد طاب لى فيها المُقام بما وجدت من ائتناس أهلها إلى الغريب حتى ينسَى فى جوارهم أهلَه[3] بما يأنَس عندهم من مظاهر الأنس والمودَّة ، ووجدت لهم صبراً على طلب العلم يتخذون المكاتب[4] لأولادهم وحَلَقَ العلم لأدبائهم ، وتُشَدُّ إليهم رحالُ الطلب من جميع الوجوه ، لأن لهم من الأدب المكان الذى لا يُرْقَى ، غير أنى لم أر فيهم إلاّ وَهِنَ البِنْيَة سقيمَها وأصفرَ اللون كاسفَه ،[5] وذلك ناشىء فيهم من عفونة الماء ووقوع إقليمهم فى مَهابِّ الرياح المختلفة التى تتبدل فى اليوم الواحد ألوانا وضروبا ، فيُجْبَرون على لُبْس القُمصان مرةً والمبطَّنات أخرى ، ولذلك سُمِّيت مدينتُهم

---

(١) الدميرى والقزوينى والقرمانى (٢) ياقوت ١ : ٦٤٤

(٣) ابن بطوطة ٢ : ١٠ (٤) الابشيهى ١ : ١٧٧ (٥) الأغانى ١٧ : ٧٨

بالرَّعْناء ، أنشد الفرزدق [١]

لولا أبو مالك المرجوُّ نائلهُ ما كانت البَصْرة الرَّعْناء لى وطنا

وقد لَقِيتُ فيها جماعة كثيرة من الأدباء مثلَ عبد الكريم بن أبى العَوْجاء والمؤرِّج السَّدُوسىِّ الروايةِ ، والحسن بن هانئ الشاعرِ [٢] والنَّضرِ ابن شُمَيْل تلميذِ الخليل بن أحمد وواصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس الحسن البَصْرى لمخالفةٍ فى المذهب ثم سَمَّى الناس من ذهب مذهبَه بالمعتزلة [٣] لذلك، وشهدتُ حَلْقة عُنْبَةَ النحويِّ وأبى زيد الأنصارىِّ ويونسَ النحوىِّ، وله أعظمُ [٤] حَلَقة فى البصرة من حَلَق علمائها ، وسمعت الحديثَ عن سفيان بن عُيينة الثَّوْرىِّ وشُعبةَ بن الحجّاج العتكى ، غير أنى ما أصطفيت منهم لمحادثات الأدب الاّ الخليلَ بن أحمد ، لأنى وجدته أوسعَهم عقلا ، [٥] وأحضرَهم روايةً ، لايسامية فى علوّ الخاطر الأصالحُ بن عبد القدّوس الشاعرُ، ولكنى تحاميت مجلسَه لما يُتَّهَمُ به من الانحراف عن السُّنة، [٦] وإن كنت لا أبخَس عقلَه حقَّه من التعظيم . وقد سمعت أنه يجهد نفسه فى طلب الدنيا والتماس السعة منها ثم لا يحصل على القليل إلاّ بعد عَصْب الريق وفى قوله

لو يُرْزَقون الناسُ حسْب عقولهم ألفيتَ أكثرهم ترى يَصَّدَّق

إشارةٌ إلى ما هو فيه ، وأنّ النعمة تُصيب غيرَ أهلها ، بخلاف الخليل ابن أحمد فانه متقلل من الدنيا راض منها باليسير، والملوكُ تبذُل له المالَ [٧] ولا يقبَل منهم شيئاً مع مكانه من الحاجة إليه . وقد اشتهر فضله بين الناس

---

(١) ابن بطوطة ٢ : ١٦ (٢) هو أبو نواس ذكر الأغانى ٦ : ١٧٩ أنه كان مقيما بالبصرة فى صباه (٣) المستطرف ١ : ١٢٦ (٤) العقد ٣ : ١٣٧ (٥) ابن خلكان ١ : ٢١١ (٦) الأغانى ١٣ : ١٥ (٧) الشريشى ٢ : ٢٦٨ والابشيهى ١ : ١٧٦

بعلم العَروض ، وضعه على دوائر خمس تتجزأ منها الأبحرُ الخمسة عشَرَ . عِلْمٌ أنّ سموَّه فى العلم لا ينفرد بأدب الشعر وحدَه ، إذ له فى اللغة كتاب سمّاه العينَ وأودعه من عيون العلم [١] ما هو زينة وفخر لدولة الاسلام

ذكر البصرة وأماكنها المشهورة

ولقد ظننتُ البصرة لأولِ وهلة ليست بالمفرطة الكِبَر ، فلما طفت فى ساحاتها ، وجدت فى أرباضها ومَحَلّاتها ، بدالى أنها متسعة البقعة كثيرة العمران ، قلّ أن يكون بها موضع غُفْلٌ من العمارة خِلو من السكان. ومبانيها على الغالب من اللَّبِن إلاّ ما كان من المسجد الجامع فانه مبنى بالصخر والجصّ على أتمّ إحكام وأبدع صناعة ، وأولُ من بناه عُتْبة بن غَزْوان ، أقامه من القَصْباء لاجل أن ينزِعه متى شاء ثم يُعيدَ اقامتهُ ، فلما جاء أبوموسى الأشعرى بناه باللَّبِن وطلَى جدرانه بالأصباغ . ثم جاء زياد فزاد فيه السقيفةَ التى فى مُقدَّم المسجد ، [٢] وحمل إليه العُمُدَ المزخرفةَ من الأَهْواز ورفع جُدرانه بالحجر والجِصّ ، [٣] ثم لم تزل عناية الولاة به من بعده إلى أن تمّت زينتُه وكثُرت له الوقوف الواسعة . وفيه اليوم قاض يفرِض النفقات ويحكم فى مائتى درهم وعشرين ديناراً فما دونها [٤] تخفيفاً عن الدواوين التى تنظر فيما هو فوق ذلك من قضايا الناس

ثم سِرتُ من هذا الجامع إلى مسجد علىّ عليه السلام ، واذا صحنُه مفروش بالحَصْباء الحمراء ، وله أوقاف جزيلة مما وقف له الفُرْس ومن يقول

---

(١) المقدمة ٥٠٢ وابن خلكان ١ : ٣٤١ (٢) الأغانى ١٧ : ٢٨
(٣) ياقوت ١ : ٦٤٢ (٤) الماوردى ١٢٣

بخلافة أهـل البيت ، وهم يجتمعون فيه ويتبركون بمزاره ، كأنّ وعيـدَ أبى جعفر لم يحد منهم نفوساً راجعة إلى غرضه فيما أوجد من الفُرقة بين العَلَويّة والعبّاسية . ووجدتُ فى بعض مقاصيره مصحفا عليـه أثر دابغ مثلُ الدم الجاف ، يقال إنه المصحف الذى كان يقرأ فيه عثمان حين قتل ،[1] و بعدأن قضيت زيارته المباركة جُلْتُ فى أسواق المدينـة فرأيت التجارة فيهـا على أحسن ما يكون من الرواج ، ولا غروَ فإن هى إلاّ فُرْضـة العراق والشام وخُراسان وما إليها من البُلْدان العاليـة مما يُـكْسِبها حسنَ الموقع ، بحيث لا يصدُر شىء من هـذه البُلْدان ولا يرد إليها إلاّ من البَصْرة ،[2] ولذلك استفحل فيها العمران وكثُرت بها المصانع والصنائع إلى أن صارت واسطة عقد بلاد العرب وقبّة الاسلام .

ومما يذكر عن بنائها ما حدثنى به الهَيْثَم أميرُها أن المسلمين افتقروا فى صدر الدولة الى منزل ينزلون به واذا دهمهم عدوّ لجئوا اليه واعتصموا به ، فبعث عمر (رضى الله عنه) عُتْبَةَ بنَ غَزْوان المقدَّم ذكرُه وأوعز اليه أن ارْتَدْ لنا موضعا فى جهة العراق قريبا من المرعَى والماء والمحتطَب ، فكتب له من البصرة انى وجـدت أرضاً كثيرة القضـة فى طَرَف البر الى الريف ودونها مناقعُ فيها ماء وفيها قَصْباء[3] فكتب اليه عمر أن ينزلها بمن معه فوقع تمصيرُها فى السنة الخامسةَ عَشَرة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم.

ولما جلستُ الى الخليل العالم الأمثل ودار بيننا الحديث على أيام الناس الأوَل ، أخبرنى أنّ البَصْرة انما اختطّها العربُ نكايةً بالفرس لتحويل

---

(١) ابن بطوطة ٢ : ١٠ (٢) المسعودى والقزوينى

(٣) ياقوت وابن حوقل ١٥٩

التجارة من سواحلهم اليها ، وذلك أنهم لما صالت منهم الأجناد، واتسعت بين أيديهم أحبوا أن يبنوا هذه المدينة فُرْضَةً لجميع المشرق ، ففشت العمارة فيها فى برهة يسيرة حتى غَصَّت بالناس على ما رحبت أرجاؤها. يقال إنه كان فيها من مقاتلة العرب لأيام زياد ثمانون ألفاً ، [١] وأخبرنى الهَيْثَم أن أهلها يبلغون اليومَ خمسمائة الفٍ من الرجال ، بدليل المال الذى فرّقه فيهم أبو جعفر ، وكان ألفَ ألفِ درهم فلم يُصِب الرأسُ منهم إلاّ درهمين [٢]

وتبعُد البَصْرة عن عَبّادان حيث الشاطىء نحوَ ساعة زمانية، وعندها تختلط مياه دِجلة والفُرات [٣] وتصبّ فى البحر الملح بعد أن تفقِد عذوبتَها ، لأن المدّ يأتى إلى ما فوق البصرة بأميال ، فاذا امتزج به ماء دِجلة صار ملحاً [٤] ، ولقد يخال الرائى لأول وقوع المدّ أنّ البلاد صارت غديراً ، كما وقع لحمزة بن عبد الله أمير البَصْرة لعهد ابن الزُّبَيْر ، وقد ركِب يوماً إلى الفيض ، فقال إن هذا الغدير ان رَفَقوا به يكفهم صَيْفَتَهُم هذه ، فلما كان بعد ذلك ركِب إليه فوافقه جازرا فقال قد رأيته ذاتَ يوم فظننت أنْ لن يكفيَهم ، فقال له الأحنف بنُ قيس ، أيها الأمير إنّ هذا الماء يأتينا ثم يغيض عنا ثم يعود ، فخجِل حمزة ، وعاب عليه الشعراء ذلك فى أبيات لهم يعرفها عامة الناس .

ولقد تصفّحت فى البصرةِ كثيراً من قصورها المُشْرفة ، واستقريت أماكنَها المشهورةِ بما وَعَيْتُ عنها من الأنباء ، وأحسنُ ما استظرفت منها قصرٌ لمحمدِ بن سليمان الهاشمى [٥] ، وهو أوفر بنى العباس مالا وأعظمهم

---

(١) ياقوت ١ : ٦٤٤ (٢) الشريشى ٢ : ٤٣٧ (٣) المقدمة ٥٥
(٤) القزوينى والاصطخرى والمسعودى (٥) ياقوت

لشاعرٍ نوالا ، تُغِلُّ ضِياعُه كلَّ يوم مائةَ ألف درهم[١] ، وقد بناه على بعض الأنهار واستفرغ فى زينتِه جُهْدَه ، واتخذ فى جنانه المَها والغزلانَ والنعامَ وأنواعَ السباعِ والطيورَ المغرِّدة ، فجمع فيه محاسن الحضارة والبداوة ، وفيه يقول الشعراء .

زُرْ وادىَ القصر نم القصر والوادى ... فى منزل حاضرٍ ان شئت أو بادى
ترقى به السفن والظُّلْمان حاضرةٌ ... والضبُّ والنونُ والملاّح والحادى

الى آخر الأبيات .

وأمّا القصور التى بقيت بعد أربابها فانها لَكثيرةٌ فى البصرة شاهدت منها قصراً لأَوْس بن ثَعْلَبة[٢] الذى وَلِىَ العراق وخُراسان فى دولة الأمويين ، وهو قريب من المِرْبد[٣] ، وعليه قباب مرفوعة يَغَصُّ الجوُّ بها صعوداً ، ومن حوله خمائل وارفة ، كأنّ الأيام تزيدها جِدّة ونضارة ، وتُلْبسها من الخضرة حلة قشيبة . ولله ابنُ أبى عُيَيْنَةَ حيث يقول فى وصفها هذه الأبيات

بغرسٍ كأبكار الجوارى وتربةٍ ... كأن ثراها ماء ورد على مسك
يذكرنى الفِرْدوسَ طوراً فأرعَوِى ... وطوراً يواتينى الى القصف والهتك
وسِربٍ من الغزلان يرتَعْن حوله ... كما استلَّ منظومٌ من الدرّ من سلك
وورقاء تحكى الموصلىَّ إذا غدت ... بتغريدها أحبب بها وبمن تحكى
فياطيبَ ذاك القصرِ قصراً ونزهة ... بأفيح سهل غيرِ وعر ولا ضَنْك

وشاهدت قصر الأحنف بن قيس[٤] المقدَّمَ ذكرُه فى رحْبة المنجاب[٥] ،

---

(١) المسعودى (٢) الأغانى ٣ : ٣٦ وياقوت (٣) الأغانى ١٣ : ١٠
(٤) الأغانى ١٧ : ٥٦ (٥) محلة ذكرها الأغانى ١٢ : ٦٣

وداراً لأَنَس بن مالك[١] خادِم النبى صلى الله عليه وسلم ، وايواناً للزبير بن العوّام[٢] تنزله التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرُهم ، وآخرَ لعُبَيْدالله بن زياد يسمى البيضاء[٣] ، وهو بمقرُبة من الموضع الذى خطب فيه أبوه خطبته البتراء[٤] التى أخذت بقلوب البصريين وقد تداعت جدرانه فلم يبق منه إلاّ أثر دارس ورسم شاخص .

العرب البادية ونتف من اخبارهم

ولقد أتيت مِرْبد البصرة عن طريق المهالبة[٥] فسكة المِرْبد ،[٦] فاذا هو ساحة كبيرة تنوخ فيها الجمال ، وتحطُّ بها الرحال ، وتعلّق فيها الأشعار التى يتناشدها العُرْبان فى أيام من الشهر معلومة يكون لهم بها مجالسُ ويبيعون ويشترون ،[٧] وهناك موضع يقال له شمس الوزّانين وفيه مسجد صغير يعرف بمسجد الأنصار ،[٨] قد طُلِىَ بالأصباغ ولم ترفع صوامعه إلاّ قليلا ، ووجدت صحراء البصرة من وراء المِرْبد وعرةً مرملة لا يغرد عليها طير ولا ينبُت فيها شجر غيرَ النخيل لفقْدان الماء فيها ، وخيراتُ البصرة تردها من الأُبُلَّة ، وهى مدينة عامرة بالناس خِصْبة الجناب كريمة البقعة يشقُّها جدول من دِجلة ولا تخترق أشعة الشمس أرضها لالتفاف شجرها بعضِه على بعض ، وفى مُرْساها مجتمَع كثير من مراكب

---

(١) ياقوت ٤ : ١٠٩ (٢) المقدمة ١٧٨ والمسعودى ١ : ٣٣٣ (٣) القزوينى ٢٠٦ (٤) سميت بذلك لأنه لم يفتتحها بالحمد لله والثناء عليه (٥) الاتليدى ١٠٧ (٦) الأغانى ١٢ : ٦٤ (٧) تقويم البلدان ٣٠٩ والأغانى ٥٠٧ (٨) الأغانى ١٧ : ١٨

الهند والصين ، لأن الربح فيها واسع لأهل التجارة . وأمّا النخيل المتصل فيما بينها إلى البصرة فأعلى الصحراء فانه كسبٌ وافر للناس ، يقال إنّ ثمنه يعدِل[١] ما يحمل إلى بيت المال من الأقاليم كافة .

وإلى ماوراء المِرْبد فى ظاهر البصرة عُربان من عامر[٢] وقيس عَيْلان كنت أختلف الى أحيائهم وأبيت ليالىَ عندهم وآكل من ثريدهم وأشرب من ألبان نوقهم وأجلس على الوبر والأنطاع ، وأعى أحاديثهم باقبال واستمتاع ، وأشهد حَلَق القُصّاص فيما يحدثون به من أيام العرب وأخبارهم فوجدتهم يتفاخرون بتأليف الخطب وقول الشعر والسيف والضيف ، ولا يهنئون إلاّ بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تُنتَج ، وعلمت من أخبارهم أنهم لايأتون الفحشاء بل يعاقبون الزناة بالقتل[٣] وذكر هؤلاء القصاص أن جميلا لما سأله خُلاّنه أن ما عمِلتَ مع بثينة طول تلك الأيام قال كنت أمتع عينى من وجهها وسمعى من حديثها ، ولم أمُدّ إليها يداً غيرَ مرّة واحدة ، أخذت يدها ورفعتها إلى صدرى لتشعر بخفقان قلبى[٤] ، وهذا خبر ينقلونه عن أكابر الرواة فأحببت أن أكتبه إليك ليدلك على ما وضعه الله فى صدورهم من نُبْل الهمة وعفاف النفس .

وقد بقى فى خاطرى ذِكر عذب لاجتماعى بهؤلاء العُربان ، وقد طاب لى الجلوس إلى قيس عَيْلان أكثر منه إلى بنى عامر ، لأنى وجدت فيهم بياناً وفصاحةً[٥] غير أنهم لم يلبثوا فى البصرة الاّ قليلا حتى شالت نعامتُهم ،

---

(١) ياقوت ١ : ٦٥٠ (٢) فى الأغانى ٤ : ١٩٣ أن جماعة منهم نزلوا بظاهر البصرة قريبا من ذلك الوقت (٣) تزيين الأسواق (٤) تزيين الأسواق ٢ : ٩
(٥) الأغانى ٣ : ٥٣

فصرت أتوجه إلى بنى عامر وعَرفت بالمُقام بينهم كثيراً من خلال العرب المحمودة ، وقد أعظمتُ رواج الأدب بينهم ، والكتابةُ عندهم مفقودة [١] غير أنهم يجرون على قواعد اللغة فى أشعارهم ومحاوراتهم بما ليس فى الامكان أصحُّ منه ، ولهم فى كلامهم من الأمثال الحكيمة مالم نجده فى كثير من أمم العلم والحضارة ، فيمُرق الكلام من أفواههم مروقَ السهم من الوَتَر كما يقولون ، وهم أصحُّ الناس أبدانا ، لأنَّ الظَّعْن كفيل لهم بطيب الرياح التى لا تخبُث إلاّ مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات [٢] ولأنّ طعامَهم اللبنُ والتمر والقليل من اللحم ، وما يمارسون من الرياضة بعيد عن أن يجلِبَ إلى أبدانهم العلل ، [٣] وأكثرُهم من صلابة الجسم والنشاط بحيث يلحَقون الخيل والحمُرُ الوحشية عدْوا ، فلقد سمعت من يحدِّث عن تأبّط شرًّا أنه كان إذا جاع نظر فى السهل إلى الظِباء فانتقى لنفسه أسمنها ، ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه ويذبحه بسيفه ، [٤] وربما حدّث الرواة بكثير من أمثال هذا الخبر عن الشَّنْفرى وعمر بن برّاق وغيرهما من العدّائين

ووجدت لهم من الصفات الحِسان التى تحدثها فيهم شهامةُ النفس ما ليس يجتمع فى غيرهم من الأمم اجتماعَه فيهم ، فهم يحمُون الذِّمار ، ويمنعون الجار ولا يُغمِضون على الذل كما هو معروف عنهم فى الأشعار ، فلأن يموتو

---

(١) أى عند عربان البادية لأنه يعرف أن المتمصرين كانوا يكتبون قديماً بالحروف الفهلوية التى كانت تستعملها الفرس ثم صاروا يكتبون قبيل الرسالة بالحروف الحميرية الى أن استبدلوها بالكتابة الكوفية فى صدر الاسلام ويقال إن أيوب الصديق انما كتب حديثه بلسان العرب اه (٢) المسعودى والمقدمة (٣) قال فى العقد الفريد لأمر ما طالت أعمار الرهبان . وصحت أبدان العربان . وما لذلك علة الا التخفف من الزاد (٤) الأغانى ١٢ : ٤٩

قتلا تحت ظِلال السيوف ، أحبُّ اليهم من البقاء فى رِبقة الذل والجُنوف . يقول عمرو بن كُلثوم من أصحاب المعلقات .

إذا ما الملكُ سام الناس خَسْفاً أبينا أن نُقِرّ الخسف فينا

إلى غير ذلك من الأبيات المعروفة ، وهم يفون بالقول من غير أن يكتبوا على نفوسهم العهودَ ، ويأخذون بثأرهم أخذاً شديداً ، وذلك ناشئ فيهم من بعدهم عن القضاء ، لأنهم لو كانوا يعانون الأحكام لفسد البأس فيهم ، وذهبت المَنَعَة منهم ، [١] ولكنّ ذلك قد يدعوهم إلى التفانى على غير علة الا الحصولَ على الرخيص مما يبذلون فى سبيله من النفيس ، كاثارتهم لأجل امرأة أو فرس أو بعير قتالا يستمر أعواما طِوالا بين عشائرهم ، حتى إذا أراد الله تعالى أن يدركهم بلطفه الشامل نهاهم عن القتال فى الأشهر الحُرُم فنقص فيهم من القتل ما يقع فى أربعة شهور من القتال ، والله رءوف بالمؤمنين وهو العليم الحكيم لا ربَّ سواه .

وأكرمُ ما وجدت فيهم من المحامد الموصوفة الكرمُ والسماحة ، حتى إنهم ليُضيفون نزلاءهم ضيافة يوجبونها على أنفسهم ، ولو كان النزلاء قَتَلة آبائهم ، [٢] وربما توسعوا فى أدب الضيافة إلى أن يكون بهم بشاشة عند قدوم الضيف وغُصّة عند ارتحاله ، كما يقول عاصم بن وائل من شعرائهم

وانا لنَقْرِى الضيف قبل نزوله ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

ولقد كنت أسمع عن كرمهم أحاديثَ لم أنقلها عن جانب الثقة والاعتبار . فلما نزلت بجوارهم تحققتها بالمشاهدة والاختبار . ووجدت أن كلَّهم كريم ، حتى لقد يكون السخاء تسعةً فيهم وواحدا فى الناس ، [٣] ومن

(١) المقدمة ١٠٩ (٢) الأغانى والاتليدى (٣) المحاضرة ٢ : ١٨١

زعم أنّ حاتما الطائىّ أكرمُ العرب فقد ظلمهم جميعاً. وظنى بأخذهم فى هذه الضيافة الواجبة أنه أمر طبيعىّ عندهم، لأن الراحل منهم قد يفوز فى الفلاة أياما طِوالا على جَهْد من العطش وسُعار من الجوع ، فاذا انتهى إلى خباء مضروب ورآه أهله بمكانه من العناء والأعياء قَرَوْه وعلفوا مطيَّته وأوقدوا له نارا يصطلى بها من كَلَب البرد كما يقولون ، حتى إذا أصابهم فى ظَعْنهم مثلُ هذا العَنَت الشديد يتلقاهم أهلُ الخيام على السَّعة من الضيافة

قال حسان بن ثابت يتهلل بذكر المكرمات .

وانى لمعطٍ ما وجدتُ وقائلٌ لموقد نارى ليلةَ الريح أو قِدِ

وكان الكرم ينتهى بهم إلى أن يقوم لعشائرهم منادٍ فى الأسواق ينادى فى الناس هل من جائع فنطعَمه أو خائف فنؤمّنه أو راحل فنحمله ؟ . وهذا أحسن ما يكون من محامد النفس الكريمة . ولست أقول إلاّ أنه كانت لهم فى مناقضة هذه المحاسن مساوئ كثيرة فى الجاهلية ، فلما نزل كتاب الله روَّض أخلاقَهم المستهجَنة وصرف عنهم المكروه من العادات ، فقد نقلت الاخبارُ السالفة أنهم كانوا فى جاهليتهم يتزوجون بنساء آبائهم (١) ويكرهون إماءهم على البغاء (٢) ويألفون غير ذلك من العوائد الخشنة التى ذهبت بمجىء الاسلام .

وإنما اضطُر العرب إلى سكنى البادية وتخير بقاعها على الأيام بحسب أحوالها من الصلاح ، لأنهم وُجِدوا فى قِفار قد تراكمت عليها الرمال المحرقة ، وما كانت تنبت لهم حباً ولا بقلا ، وكانت آبارهم تغيض فى حَمارَّة القيظ على بُعد قعرها ، فكانوا يظعَنون لورود غيرها من المناهل فى أصقاع

(١) الأغانى ١ : ١٠ (٢) العقد الفريد ٣ : ٢

يكون بها خضرة من الكلأ ، وتظهر للعين بين ما حولها من الرمال المنبسطة كأنها جزر فى بحر تسير فى مناحيه الجمال كما تسير السفن على ظهر الماء ، ولكن ليس ذلك إلاّ القليلَ فى جانب الكثير من رمالهم المحرقة . ثم ان الله تعالى أوجد لهم الابل [١] والسائمة فكانوا يرتادون لها الماء فيما اتسع لهم من مجالات البادية ، فكان سكناهم فى الوبر بما تقدم من الاسباب أمراً طبيعياً ، ولو أنهم نزلوا الأمصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة لما اتسعت من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم ،[٢] فضلا عن كونهم يرون الأبنيةَ والتحويطَ حصرا لهم الرجال[٣] وحبسا لما فى الغرائز من حبّ الاستقلال . فهم لا يصبرون على الضيم ، والحريةُ عندهم أفضلُ ما أعطاهم الله، يبذلون نفوسهم ونفائسهم دون تقريرها لأنفسهم، فانا لانجد فى أحاديث النَقَلة أنَّ أمة استعبدتهم فى غابر الدهر قطّ ، فهذه الكَلْدان والسريان واليونان والروم والفرس وآل ساسان قد ملكوا العالَم الاالعُربانَ، وكان من أمانىّ الاسكندر الرومىّ أن يدعوَهم إلى طاعته بعد أن تمّ له الغلَب على المشرق، غير أن المنيَّة عاجلته قبل الاقدام على هذا التغرير ،فرُزِق بموته سلامةً من الاخفاق ، حتى لا يقالَ عنه ، وهو الملك المنصور، إنه توجهت عليه هزيمة ، إذ لست أشك أنه لو أقدم على العُربان ما ثبت له جند عليهم فى تلك المجالات التى يتوغلون فيها و يبيتون فى أمن من العدوّ وإن كثُر .

---

(١) الابل سفين العربان وهم يغتذون بألبانها ويكتسون بأوبارها ويستدفئون بوقيد أبعارها وقد أوجد الله فى قوائمها ليناً فوق القدم يطوى على الرمل ولا يغرز فيه مثل حوافر الدواب ليكون لها اقتدار على طرق الرمال (٢) المقدمة ١٠٥

(٣) المسعودى ٤ : ٢٣٤

ولقد لَقِيت من هؤلاء العُربان قِىً تلوح عليه النجابة والفطانة ، فذكرت له أنَ فى لقائه الملوك سبيلا إلى نيل العلا فاخبرنى أنه نزل الزَّوْراء لأول ما بناها أبو جعفر ولكن لم يمض إلاَّ القليلُ حتى ملَّ العمرانَ ومال به الشوق إلى ربوع العُربان . وأنشدنى وهو منصرف

لَبَيْتٌ تخفق الأرواحُ فيه أحب الىَّ من قصر منيف
ولُبْسُ عباءة وتقَرَّ عينى أحبُّ الىَّ من لبس الشفوف

والأبيات لفتاة من العرب صارت إلى معاوية بن أبى سفيان ثم لم تطِب نفساً بالمُقام عنده، فرجَعت إلى البادية بعد ما أنشأت الأبيات التى أنشدنيها هذا الغلام . فسبحان من قسم المعايش بين الأجيال . وركّبَ فى نفوسهم طباعاً متفاوتة ، لا إله إلاَّ هو ذو الاكرام والجلال .

الانفصال عن البصرة ولُمْعَةٌ من اخبار الحجاج

كان مُقامى فى البصرة شهرا وثمانيةَ أيام ، ولما طويت بساط الاقامة تهيأ لى أن أصعَد على دِجلة سفرا [1] يخفف عنى مَشَقَّة الركوب على ظهور المطايا، فدفعت حمُولى الى الرُّبان وانفصلت عن البصرة لأول هُدْءٍ من الليل، حتى إذا طلع النهار كنا فى متوسط بطاح مفروشة بالنخيل على مد البصر ، وفيها خيام لبطون من تميم [2] وشَيْبان ، [3] قد ضربوها على مرتفِعات من ذلك السهل ، فكان تأملى منازلَهم مع ما أعلمه من شدة تعلقهم بعيش البداوة يمثّل لى من بُعْدٍ ارتحالَهم مرافقين الشعراء وقد وقفوا بالعيس على

(١) المسعودى ٢ : ٢٣٩ (٢) فى الأغانى ٩ : ٧٨ أنهم كانوا يجتمعون بجوار البصرة (٣) تزيين الاسواق ٢ : ٧

هـذه الأطلال وبكَوْا عهوداً مضت لهم فى زمان الأنس ما بين هـذه الربوع .

ولما كان بعدَ أيام طلعت علينا سَموم يكاد يأخذ حرُّها بالنَّفْس، وكدنا أن ننكُص على الأعقاب لاختلاف الريح ، فرأى الرُّبان أن ينزل الملاّحون إلى البر ويربِطوا المركَب بأمْراس يجرُّونه بها من عُدْوة النهر ريثما يحصُل الفَرَج ، ومضى الليل كلُّه من غير أن تكتحل عيناى بنوم من شدة الحر إلى أيام عشرة لم نزل بها فى مغالبة الريح ومقاساة عَنَتها الشديد إلى أن وصلنا إلى مدينة واسط[١] .

هذه المدينة فى فضاء من الأرض طيبةُ الاقليم والنسيم ، غيرَ أنّ الحرّ غالب عليها لاقبال الرياح إليها من جهة الرمال المتراكمة على هِضَابها[٢] ، ومبانيها من الإحكام بمكان سامٍ ، ولا سيما القصرُ الذى بناهُ الحجّاج[٣] ، وهو باق إلى زماننا هذا ، وهو سنة ست وخمسين بعد المائة ، والناسُ يسمونه الخضراء ، وله قبّة مشهورة فى مبانى الاسلام ، حتى قيل إنه ما بُنِيَ لأحد قبل الحجّاج مثلُها[٤] ، وفيه أحواض كثيرة يرقَى إليها ماء دِجلة ، وأعظمُها حوضٌ من الرُّخام الأخضر وبه مجلس به سرير مُذْهب[٥] يقال إنه كان مَقْعَداً للحجّاج فى مجالسه العامة ، وهذا القصر بهيج مزخرَف بأنواع الزينة ، لأن النفقـة عليه وعلى الجامع الذى بجواره بلغت نحواً من أربعين ألف ألف درهم[٦] ، ولـكنه سَمج فى عينى بما ورد على خاطرى عند مَرْآه من

---

(١) تقويم البلدان ٣٠٧ (٢) القزوينى ٣٢٠ (٣) المسعودى ٢ : ١٨٣ وهو يقول انه كان باقياً لأيامه (٤) المسعودى ٢ : ١١٥ (٥) الابشيهى ١ : ٦٣ (٦) ياقوت ٤ : ٨٨٧

قبائح الحجّاج ، فكأنه بيت قد رفعت جدرانُه على دعائم الظلم والاعتساف .

وبقيتُ فى واسط ثلاثة أيام لاختلاف الريح ، ولكن على كُرْه من النفس ، لأنى كُنت أراها بعين الماقت لها . ونزلت بها فى فُنْدُق على شاطئ النهر حيث الجسرُ المُقام من سفن ، وأمامَه ساحةٌ تباع فيها الخيول ويكون بها سوق فى أيام معلومة من السنة يأتيها العُرْبان بما يريدون بيعه من الخيل الجياد التى يحتفظون بها احتفاظَ الآباء بالبنين [١] ، فانهم لا يتخلَّوْن عنها بالقليل ولا بالكثير من المال ، وإذا سألتهم بيعَها منك بأغلى الأثمان فأنت مردود فى سؤلك ، يقولون لك هذه مَنْجاتنا من العدوّ واذا أطلقنا لها العِنان طبَّقت الآفاق بأسرعَ من لمح البصر .

ولم تزل هذه السوق مُقامة فى واسط منذ بنيت إلى هذه الغاية ، لأنها كانت فى أول هذه المائة من أعمر بُلْدان العراق بما خصَّها الله من خِصْب التربة وكثرة الخيرات ، فلما وقع بها الطاعون الجارف منذ أربعين سنة [٢] ونزلت بالناس السِّنون وأخذتهم المجاعات أتى عليها الخراب والانحلال وتجافى الناس عن سكناها بما توالى عليها من الفتن التى وقعت فى صدر هذه الدولة إلى أن استقر فيها السلم وبعُد عهدها من الوباء ، فسارع أرباب التجارة إلى استيطانها لما يتسنَّى لهم فيها من قرب الاتصال والمسافةُ الآن منها إلى الزَّوْراء خمسون فرسخاً ، ومنها إلى البَصْرة خمسون أيضاً ومنها إلى الأهواز مثلُ ذلك ، وظنى أنها سُمِّيت بواسطٍ لهذا السبب ، وهو توسطها فى العراق .

وقد اتفق لى قبل الانفصال عنها أنى لَقِيت فيها شيخاً كان أبوه خادماً

---

(١) تزيين الأسواق (٢) ابن الأثير ٥ : ٧١

عند الحجَّاج (حاسبه الله تعالى) فحدَّثنى من أخباره ما تنفطر منه الأفئدة رحمةً لأهل البيت وأصحابهم ، لأنه كان يقتُل منهم جُزافاً على التُّهَمَة إلى أن بلغ عددُ الذين قتلهم صَبْراً مائةَ ألف وعشرين ألفاً ، وكان فى السجن عند ما أهلكه الله أكثرُ من خمسين ألفاً يرسُفون فى سلاسل الحديد ، ولا ذنبَ لهم إلاَّ حبُّهم لأهل البيت ، وكانت الناس فى أيامه إذا تلاقوا فى المجالس والمساجد والأسواق يتساءلون مَنْ قُتِل البارحةَ ومن صُلِب ومن قُطِع ، وقد تفاحش ظلمه فى الخَراج بحيث إنَّ الأمراء بعده كانوا يستنكفون عن ولاية الخراج خوفاً [١] من نقص الخراج إذا خففوا ضرائبه ومُكوسه ، أو الاستمرارِ على ظلم الناس اذا راموا جِباية ما كان يحمله إلى الخليفة من المال [٢] .

وقد رسم لى هذا الشيخ صورَته بأنه كان قوىَّ البِنْية مائلا إلى السِمَن ، ولا يزال العَرَقُ متصبِّباً على جبينه وصُدْغيه من تحت قَلَنْسُوَةٍ قد حوَّطها بعمامة خضراء ، [٣] وكانت له مَهابة تقصِم ظهرَ الوافد عليه . وكان شديد التهويل فى خُطَبِه ، وإذا صعِد المنبر تلفَّع بمُطْرَفه ثم تكلم رويداً رويداً

---

(١) ابن الاثير ٥ : ٩ (٢) كان ملوك بنى أمية يعرفون من الحجاج جوره واعتسافه ولكن لم يكن فى كفايتهم سهم أشد منه نكاية على العدو فلم يرق لهم استبدال بغيره بل وان ثقل أمره على الرعية . وفى مروج الذهب أنه لما وفد على الوليد بن عبد الملك كان عليه درع وكنانة وقوس عربية وقد تفضل الخليفة فى غلالة فجاءت جارية وسارت الوليد ومضت ثم عادت فسارته ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد قال لا والله قال بعثتها الى ابنة عمى أم البنين تقول ما مجالستك لهذا الاعرابى المتسلح فى السلاح وأنت فى غلالة فأرسلت اليها انه الحجاج فراعها ذلك وقالت والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق اه (٣) العقد ٣ : ١١

فلا يكاد يُسمع حتى يتزايد فى الكلام فيخرجَ يده من مُطْرَفه ثم يزجُرَ الزجرة فيقرَعَ بها من فى أقصى المسجد .

قال وكان يحدثنى أبى أنه كان يجد لذّة [١] فى سفك الدماء وارتكاب أمور لم يُقْدِم عليها غيرُه ولم يسبقه إليها سواه ، ولما أرسله عبد الملك بن مَرْوان إلى العراق ليُوَطِّئَ له المنابر خرج كميشَ الازار وغلب الناس بقوة الرجال لابالسياسةِ والرأى ، لأن جنوده كانوا من الشام [٢] وهم على غرض الأمويين مخالفون لأهل البيت ، فلما أوجدهم بين أعدائهم لم يرمنهم إلاّ نفوساً مستقِلةً راجعة إلى رأيه فى كل أمر ونهى ، فحملهم على منازلة مكة المكرمة من هذا الوجه ، ولم ينفك عن ضربها حتى استسلم إليه أهلُها بعد أن تصدع جِدار البيت الحرام ، فأقام ملكَ بنى أمية على هذا الظلم وقوَّمه لهم خمسين سنة من بعده ، إلى أن أراد الله بانقراض دولتهم فى المشرق .

هذا نَبْذٌ يسير من أخبار هذا الظالم الغاشم ، وقد رأيت تناقل الحديث عنه فى أفواه الواسطيين كتناقل الحديث فى مجالس البَصْريين عن زياد بن أبيه ، وكلاهما قد أذاق العراق من الهوان وَالقهر ما لم يسبق إليه أحد من البُغاة الظالمين ، ولكليهما فضل فى تدبير ما خُوِّلا من الولاية إلا أن لزياد فضلا فى بلاغة الكلام التى شَهد له بها أكبر الرجال وضبطِه البلادَ بأهل البلاد أنفسهم أعظمَ من فضل الحجاج الذى ما غلب العراقيين إلاّ أهل الشام وما قوَّم ملكَه إلا بالسيف الباتر . والجبروتِ القاهر .

---

(١) المسعودى ٣ : ١٠٣ (٢) الكنز ٢٢٢

المرور بمدائن كسرى أنوشِرْوان

كان انفصالُنا عن مدينة الحجاج فى ليل رطيب قد انفتق سحابُه عن القمر، فقضينا جزءا كبيراً منه فى السَّمَر حتى إذا أسفر الصباح كنا فى محاذاة قصر يقال له الرُّمان [١] ومن حوله خِيام مضروبة للعُربان، فوقع ذلك من نفسى موقعَ الاستعبار من الدنيا فى نعيم الحضارة وشقاء البداوة، إذ كانت الأضداد منها على هذا الوجه قلَّما يقع عليها النظر فى وقت واحد. وكان يلوح لنا فى صدر السهل إلى آخر النهار بناءٌ عظيم أُخْبِرْت أنه من جملة المناظر التى أقامها الحجَّاج بينه وبين قَزْوين، [٢] وهى إذ ذاك آخر الثغور، حتى إذا ظهر فيها الخوارج دُخِّنت بالنهار فدُخِّنت المناظرُ كلُّها أو أوقدت بها فى الليل نارٌ فاستوقدت المناظر فيُعلَمُ ذلك

ولم نزل نخترق عُباب دِجلة يوماً بعد آخر حتى جزنا جَبُّل والنعمانية ثم الماطر ثم يلى كلواذا [٣] وأقبلنا على المدائن مع طلوع الفجر، فنزلت إلى البر أتفرج على الايوان الذى بناه كسرى أنوشِرْوان. فاذا هو فى غاية العظم ونهاية الاتقان. يبلغ طوله نحواً من مائة ذراع وعرضُه نحواً من نصف ذلك وقدِّرت فى ارتفاعه أكثر من ثمانين ذراعاً، وليس فى مبانى الآجر ماهو أبهى منه، وقلما يوجد فيه موضع غُفْل من رسم أو نقش أو كتابة، وهو يعدُّ من العجائب ويشهد لما اقتدر عليه الفرس فى عهود الأكاسرة الذين جَبَوْا معظم الدنيا، حتى صار يضرب المثل بما جمع من الضخامة

---

(١) ابن خلكان ١ : ٤٧١ وياقوت ٢ : ٨١٤ (٢) ياقوت ٤ : ٨٨٦
(٣) المسعودى ٢ : ٢٢٩

والإحكام ، ولا يُرَى فيه اليومَ من الآثار الجليلة إلا صورُ آلهة جبابرة وسباع ضارية . ومشاهد حروب يفوز بها كسرى الخير أنوشِرْوان،[1] وأما آنيةُ القصور وزخارفُه المنقولة وما كان فيه من المتاع الثمين فقد فُقدت بعد الفتح ، وبلغ المحمول منها إلى بيت المال ألفَ ألف دينار من الذهب

وجملة القول أن شأنه فى الفخامة والاتقان مما يحيِّر الأذهان ، على أن الأيام قد أهوت عليه يعمَل الفناء الذى ليس فى طاقة الطين اتقاؤه ، ثم زاد على ذلك كله أن أبا جعفر لما ابتنى الزَّوْراء حمل من آجره جانباً كبيراً على بُعْدِ الشُّقَّة وعظم النفقة ، فعارضه خالد بن برمك (رعاه الله) وقال يرغِّبه فى حفظ ذلك الأثر يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلا يُستدلُّ به على اقتدائك الذين سلبوا ملك أهل هذا الايوان ، فاتهمه الخليفة فى النصيحة وقال أخذته النُّعَرة للفرس ، وأبى إلاَّ التعصبَ لقومه ، فوالله لأُصرعنَّه قريباً ثم شرع فى هدمه واتخذ له الفئُوس وصبَّ عليه الخلَّ وحماه بالنار ، حتى إذا أدركه العجز وخاف الفضيحة بعث إلى خالد يستشيره فى التجافى عن الهدم ، فقال يا أمير المؤمنين قد كنت أرى ألاَّ تهدمَه فأمَّا إذ فعلتَ فانى أرى أن تستمر على ذلك لئلا يقالَ عجز سلطان العرب عن هدم مصنَع من مصانع العجم ، فعرفها المنصور وأقصَر عن هدمه ولكن بعد أن قوَّض جانباً من هذا الأثر الجليل .

ولما وقفت بالايوان كانت الشمس لأول طلوعها وعلى تلك الدِّمَنِ

---

(١) ذكر ذلك البحترى فى وصف الايوان حيث يقول

والمنايا موائل وأنوشروا ن يزجى الصفوف تحت الدرفس

والدرفس الراية

ندّى يتلألأ ما بين الأوكار التى تجنح إليها طيور الخراب ، فقعدت أتأمل ما كان عليه ربُّ هذا القصر من العزة وعظم القدر ، وكيف أخنى عليه الدهر فأخذتنى لذلك عِبْرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم شاعر يقول هذه الأبيات .

أيها الشامت المعيِّرُ بالدهـــــر أأنت المبرَّأُ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيّـــــام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنونَ خلّدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى خيرُ الملوك أنوشِرْ وانُ أم أين قبلَه سابور
و بنو الأصفر الكرامُ ملوكُ الرو م لم يبق منهُمُ مذكور

وقد كان لمرأى هذه الآثار تأثير فى الخاطر لا يبرَح منه العُمُر ، وكان رحيلنا عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فراسخ[1] من دار السلام ، وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة فى آخر يوم من رمضان أرانا الله بركته بمنّه وكرمه ، ونحن قد جُزنا موضعاً يعرف بالنَهْروان[2] وصرنا على مُطَلِّ من الزَّوْراء أم البُلْدان .

مُقامى فى دار السلام

اتفق وصولى إلى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العَتَمة وهى تلمع بالأنوار ويتصاعد من المسبِّحين بحمد الله والمقدِّسين له نغماتُ تؤوِّبها معهم أرجاء المدينة ، وتعذر المسيْر على مركَبنا تجاه باب البَصْرة[3] أو كاد ،

(١) ياقوت ٤ : ٤٤٧ (٢) ابن خلكان ١ : ١٩٦
(٣) هو باب من أبواب بغداد